النص القصصي بين الحلم و الواقع

د/ امحمد عزوي
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة سطيف

الملخص:

كثيرة، هي النصوص القصصية الشعبية، التي تأتي على شكل ترابطي، بين الواقع و الحلم، حيث يضغط الواقع نفسيا، و يتحول إلى واقع متخيل، يفتح الأفق و يوسع الرؤية للمبدع الشعبي، ليخلق وضعا مفقودا في واقعه، فيلجأ بعد رصده لوقائع حياتية إلى محاولة التأثير فيها عكسيا.

هذا ما يدور حوله الموضوع، الذي يتناول قضية جوهرية للإنسان و هي العلاقة الرابطة بين الحاكم و المحكوم، ثم محاولة نمذجة بعض صور هذه العلاقة، و ذلك بغية تحطيم التراتب الاجتماعية المفروضة على الإنسان المحكوم فرضا.

Résumé:

Beaucoup sont les textes narratifs populaires qui viennent sous une forme de coordination entre la réalité et le rêve, où cette dernière s'impose comme réalité psychologique, et elle se transforme à une réalité fictive qui s'ouvre sur l'horizon et qui élargie la vision du créateur (le narrateur populaire). Pour créer une situation qui n'existe pas dans son monde réel et il se réfugie dans les réalités quotidiennes à un essai de l'influencer inversement.

c'est autour de cela que tourne cet article qui traite la problématique centrale de l'humain, et c'est la relation gouverneur-gouvernés, façon de modéliser quelques images de cette relation et cela afin de détruire les rangs sociaux qui s'imposent probablement au niveau de l'homme gouverné.

الحلم و الواقع فضاءان معيشان لدى الإنسان، يكونان لديه ثنائية، من جهة متنافرة تعمل إحداها على إلغاء الثانية. و من جهة أخرى متلازمة، تلازم التكامل أو تلازم الضرورة. بمعنى إحداهما ضرورية للثانية، أو أن إحداهما تستقطب الثانية، و قد ننزعج مفهوميا من هذا التقاطب، و لكن الوضع مؤتلف على المستوى الداخلي للإنسان حتى على المستوى الخارجي له.

قد يبدو التنافر واضحا بين الحلم و الواقع، على اعتبار أن الواقع كوضع محسوس معيوش، يغلب عليه المفهوم المادي و تبنى عليه التجربة الحياتية، يتحكم فيه منطق العلة. و الإنسان فيه مقهور بقانون الزمان و المكان ((و أن أفكاره خاضعة للقواعد الناجمة عن منطق زماني ومكاني))[1] و هذا ما يجعل الواقع ظاهريا مشاكلا عكسيا للحلم.

كما يبدو الحلم مفارقا للواقع، على أساس أنه ضرب من الوهم، إن لم يكن هلوسة، لأنه ينتقل من عالم محسوب (فيزيائيا) إلى عالم مفتوح متحرر غير آبه بالنواميس الكونية، منطقه الغاية و أسلوبه اعتماد ما لا يعتمد.

من هنا تبرز المفارقة واضحة، بين الحلم كحالة نفسية يعيشها الإنسان في فترات معينة. و الواقع كحالة معيوشة تستغرق كل حياة الإنسان ماعدا فترات الحلم.

و الحلم كمفهوم مطلق يندرج ضمن حالتين يتعرض لهما الإنسان:

حالة النوم. و هي حالة تتصف بعدم الخضوع لقوانين الواقع و ((خلال النوم يتراجع ملكوت الضرورة و يخلي مكانه لملكوت الحرية و تغدو كينونة الـ "أنا" مرجعية الأفكارو المشاعر الوحيدة))[2] و يندرج هذا في اللاوعي الذي يشكل نشاطا ذهنيا منقطعا عن العالم الخارجي منفصلا عن أدنى اهتمام بالنشاط و الفعل.

و هذه الحالة حالة فردية تخص الفرد، غير أنها عامة تصيب جميع الأفراد دون استثناء، و يمكن وصفها بحالة اجتماعية، إلا أن التجربة المعيوشة في الحلم تختلف من واحد لآخر تبعا لحالات الأفراد.

و الحالة الثانية و هي حلم اليقظة. هي حالة يمكن أن نصفها بحالة تقاطع الوعي باللا وعي. فالفرد في هذا الوضع واع بوجوده و لكنه خارج عن واقعه منغمس في واقع افتراضي، أو واقع يحلم به، أو هو سروح في ملكوت متخيل يكون الحالم بطلا فيها، و هذه الحالة تمثل شكلا من أشكال التعويض و إصلاح الافتقار الحاصل عنده، أو هو إرضاء للنفس بهذه الطريقة. أو تصوير مفترض لأحداث هي ضرب من التعديل لما هو واقع في

الواقع. و أحيانا تتحول هذه الحالة إلى شرود ذهني ينتج عن اضطراب نفسي و يوقع صاحبه في مشاهدة أحداث مختلفة.

و بهذا يشكل الحلم مع الواقع صراعا دراميا، ضحيته الإنسان القابع في مركز جذب الطرفين ((هذا الصراع بين روح الإنسان اللا محدودة في تطلعاتها وصبواتها و طاقاتها و بين جسمه المحدود من كل جانب، زمانيا و مكانيا و قدره، هذا الصراع بين السماء و الأرض، بين الرجولة و الأنوثة في الإنسان))[3]. ثم أن هذا الصراع يتحول إلى متنفس يلجأ إليه الإنسان (من–إلى–من) كلما أعياه الطرف الآخر.

هذا اللجوء إما أن يكون ذهنيا عن طريق الاسترخاء في حالة أحلام اليقظة و إما ذهنيا منقطعا عن العالم الإرادي بواسطة النوم الذي يكون فيه الإدراك الحسي في حالة تكاد أن تكون معطلة، ليفسح المجال للجانب الفيزيولوجي لاستعادة الطاقة المبذولة في النشاط الإدراكي، كما يعمل على تجديد طاقة الجسد و إحيائها.

و كلتا الحالتين لا تنقطع انقطاعا كليا عن الواقع. و الواقع هنا لا يفهم عن طريق الإحساس به كإدراك حسي، بما يحمله من مكان و زمان واقعيين طبيعيا. و لكل واقع له خصوصيات تميزه عن الواقع الأول، و مشابها في الوقت ذاته له، هذه المشابهة تحمل في رحمها مفارقة بينهما. فالواقع الأول واقع مغلق على نفسه محدود بالزمن الموضوعي و بالمكان الجغرافي. بينما الثاني مفتوح، مطلق، هلامي، زمنه هو إلى الزمن الأسطوري أقرب، و مكانه يتقلص و يمتد دون أن يعتريه ضرب من الوهن في هذا الوضع، ((لذا يمكن أن نرى الخيال الخلاق مستقطبا من قبل قوتين متضادتين و متتامتين، الواحدة هي العقل بحد ذاته، و الذي يخبرنا عن الحقيقة التي يجب أن يؤسس الخيال ذاته عليها، و ما هو الممكن، و ما هو الذي يجب أن يبقى على مستوى الرغبة أو الخيال الجامع. أما القطب الآخر فسأدعوه رؤيا أو الإرادة الصافية غير المكبوتة، أو الرغبة في توسيع القدرة البشرية، أو الإدراك، دون اعتبار إمكانية تحقيق هذه الرغبة))[4]. و هذا ما نجد النص القصصي الشعبي مطبوعا به.

و هنا يمكن طرح تساؤل (بريء). هل النص الشعبي القصصي أنشئ في البدء على هذه الشاكلة، بهذا التفكير اللا منتمي للعالم الخارجي، و أن صاحبه ثم أصحابه من بعد أغراهم التحرر من القيد الكوني القائم على البعد الزماني و البعد المكاني؟ أم أن التأمل

الحالم أغواهم عبر المسافات اللامحدودة، لرسم ملامح حياة أخرى قائمة على مبدأ الفوضى التي تنتج النظام؟

الحقيقة التي أجبرنا على تلمسها قائمة على ما يمكن أن نسميها بالمرآة المحدبة ظهرها يفلطح الوجه و قعرها يضخمه.

كذلك النص المروي، سطحه يعطي نموذجا مشوها بمستوى الفكر و التفكير، و عمقه يعطي بعدا مغايرا لسطحه حتى أنه يكاد أن ينفلت منه و يناصبه الفرقة، لكن رغم هذا التباين فإننا لا نعدم مدخلا إلى رحاب النص و محاورة الدلالات الرمزية المبني عليها كرموز إجتماعية يسعى المجتمع إلى تحقيقها، أو هو راغب في تحقيقها و لو عن طريق الحلم. و سأختار لهذا نصا متداولا في كثير من الأماكن و هو نص (هارون الرشيد أو لقرع بوكرشة) و ذلك لعدة اعتبارات منها:

– أن النص يحمل مثلا شعبيا شائعا بين الطبقات الشعبية و المثل دال على مدلول عام يشير إلى نواحي مختلفة من أمور الحياة.

– النص له علاقة بنظام الحكم، و الحكم لا يستقيم إلا إذا كان الحاكم عالما بأحوال المحكومين.

– النص انطلقت أحداثه من رؤية رآها البطل في حلمه.

– النص كسر معتادا، فهو على غيره من النصوص لم يكن يسعى إلى تحقيق غاية، بل هو غاية في حد ذاتها.

من هذا و من غيرها. كان النص مؤهلا لمطابقته لما سبق من الكلام عن حلم الإنسان لتحقيق الإشباع و الرضا محافظا بذلك على توازنه النفسي.

و يمكن التعامل مع النص من خلال ثلاثة مشاهد أساسية:

الحلم

العيش خارج الحلم

عودة الوعي.

النص هارون الرشيد[5] أو لقرع بوكرشة – كما سجله عمر بن قينة – ينطلق من رؤية رآها بطل النص، و لا تهم الحقيقة التاريخية حول اسم الشخصية لأن القرائن النصية لا تدعم ذلك، و إنما لأسباب عرضية استغل اسم الخليفة العباسي لتسمية النص باسمه نظرا

لمكانته التاريخية و تجذره في الذاكرة الشعبية و اقترانه بأحداث الليالي. أما دون ذلك فلا أهمية له في مضمون النص.

فالنص انطلق – كما قلت – من رؤية، و الرؤية حلم، لها صيغة إلزامية في العقلية الشعبية، أو هي شكل من أشكال القدر الذي ربط الإنسان مصيره به حتى ((أصبحت ملمحا مميزا لتراثنا [الشعبي]))[6]. و هذا ما ألزم – السلطان – هارون الرشيد على الامتثال و مغادرة سلطانه في كلا النصين حلم :

النص الأول يخبرنا عن هارون الرشيد بأنه سلطان عظيم و له مال و جاه لا يضاهى. في نومه أرسل الله له ملكا، فأمره أن يترك حياة الملك و يتشرد لمدة سبع سنوات.

النص الثاني مهد له بقصة لتكون سببا لبروز هارون الرشيد نتيجة لأحداث وقعت لشخص آخر. ثم اعتلى العرش، و أثناء نومه ((عاش حلما قال له الطيف فيه : أنك ستقضي سبع سنوات (ذلة) فاختر بين (أن تكون هذه السنوات في أول حياتك و بين أن تكون آخر حياتك)،))[7] فالحلم هنا وقع خارج الذات الحالمة، أو انتقل من (هو) إلى (هم) فيصبح الـ (هو) شخصية افتراضية قامت بفعل (هم). و يتحول (هم) إلى (هو) في معايشة الحلم و الذي يتحول إلى واقع معيوش يبنيه هذا الـ (هو) ليحقق رغبة (هم).

لأن في الواقع يُرى في السلطان كسلطان، ورث الحكم أو أقامه بأسنة الحراب، ثم دعمه بشرعية دينية (في خليفة الله في الأرض). فترك السلطان للحكم لا يتم – أيضا – إلا بالموت أو بأسنة الحراب، و هذا لا يحقق في التفكير الشعبي إشباع رغبة الشعب، من هنا جاء هذا التصور الحالم من إنزال السلطان من عرشه، و جعله يعيش حياة المذلة و الهوان. و رغم قساوة هذا الحكم إلا أنه ليس انتقاما بقدر ما هو تجربة يُراد منها تمكين السلطان من معرفة الحياة كما هي في الحياة.

و إذا ادعيت أن هذه الصورة هي حلم، فليس أن كل الشعب نام و حلم بها، أو أنه تقاطع وعيه بألا وعيه و تخيلها. و لكنها هي صورة ابتدعها مبدع، هي نتيجة معاناة شعب عبر عنها بهذه الصورة و عممها، فهي لا تخص سلطانا بذاته، تخطت الزمان و المكان و تحولت إلى رمز اجتماعي يغلب عليها طابع البساطة و لكنها تحمل عمقا يتكشف في المشهد الثاني و المتمثل في العيش خارج الحلم : و هي الفترة التي عاشها (هارون الرشيد) و الممتدة بين الحلم و عودة الوعي بذاته. هذه الفترة كشفت عن المعاناة المخفية للطبقات الشعبية. فتقمصه شخصية الشريد بهيئته الغريبة المثيرة للسخرية، كشفت عن التناقضات

الاجتماعية و اختلال التوازن على مستوى الطبقات الاجتماعية (لاَبَسْ جَلْدْ الْكَبْشْ وُ وُضَعْ عْلَى رَاسُ كَرْشَ و ارْبَطْهَا بَالْمَصْرَانْ. كَانْ يَمْشِي وَ الصْغَارْ إعَيْطُوا اعْلِيهْ لَقْرَعْ بُوكَرْشَ... خَدَّمُو الزْلاَبْجِي عَنْدُو.. شْفَقْ اعْلِيهْ). هذه هي الشخصية الثانية المتحولة بعد الحلم، ثم تأتي الصورة الثانية له بعد أن وقعت ابنة السلطان في حبه، و تزوجته و أصبح صهرا للسلطان رغم مكانته المتدنية. إلا أن هذا الوضع الجديد له قد أثار حساسية أصهار السلطان المنتميين إلى طبقة اجتماعية راقية. هذا ما أدى إلى كشف هذه الشريحة من المجتمع، بحيث استطاع أن ينجز أعمالا بطولية عجزت عليها هذه الشريحة.

والمشهد هنا لا يقف عند سطح النص الظاهر، بل ينفذ إلى عمق مكونات المجتمع، و يقف شاهدا على أن الطبقات الاجتماعية مهما كانت فإنها غير قادرة أن تؤسس لنفسها وجودا، و أن الطبقات العليا لا تستطيع أن تبرز إلا بالطبقات الأخرى. كما أن المواقع الاجتماعية ليست حكرا على هؤلاء ما داموا لا يقدرون على معالجة الأحداث التي تواجههم.

و المشهد بهذه الصورة الرامزة يفضح هشاشة طبقة معينة من جهة و من جهة أخرى هي دعوة إلى التحرر من نير التسلط، إنه ((يعني من جوهره هزيمة كل النقائص و العيوب التي يعاني منها الإنسان، و يحاول جاهدا أن ينتصر عليها و أن يتخلص منها، فنيا على الأقل، إذا لم يكن في استطاعته أن ينتصر عليها في الحياة الواقعية))[8]. فالمبدع الشعبي عمد إلى قمة المجتمع (السلطان) فدكها، فتحول السلطان و هو رمز للحكم و التحكم إلى فرد عادي أو دون العادي، ليحوله المبدع من حاكم المجتمع إلى حاكم للمجتمع، و إمعانا في التحويل أن زوجه من بنت سلطان المدينة و هي دعوة رمزية إلى المساواة و رغبة مدفونة في اللا شعور المجتمع فجرها النص بهذه الطريقة الفنية، و على الرغم من تحقق ذلك إلا أن النص لم يكتف بذلك بل أن ((جعل الشر نفسه سببا في هزيمته و اندحاره أي أن الشر يحمل بذور انهزامه و اقتلاعه، في ذاته))[9]. و يتمثل هذا في أصهار السلطان الذين يمثلون آليات الحكم بقربهم منه.

و النص القصصي في صياغته لمفاهيم الخير و الشر و تجسيده لهذه المفاهيم، تصدر في مصدرها عن العقلية الشعبية المبدعة لهذا النص، الذي يجسدها في الشكل الذي يتلاءم مع نمط العلاقات السائدة في المجتمع من ناحية، و بنيته الثقافية و أنساقه القيمية

من ناحية أخرى و ما تحملها من المضامين مع ما يتلاءم مع هذا كله، حتى يتم إحداث التأثير المطلوب و تحقيق الهدف الذي يبتغيه المجتمع.

فهذا المجتمع يفتقد إلى العدل ، و ينتشر فيه النفاق و الفساد، و تُهدر فيه القيم الإنسانية، أو يمنع فيه الفرد من إثبات وجوده، أو يطغى عليه الإحساس بالانكسار و الهزيمة، يصبح البطل هو الذي يتحمل على عاتقه إزالة كل ما يتعارض و حاجيات المجتمع. و البطل هنا – في النص – بطل محول من طبقة إلى طبقة، أو هو لا منتمي مما يسهل في مهمة المبدع – الأول – ليحركه وفقا لما يصبو إليه، و ليجعله رمزا دالا على وضع قائم.

و يأتي المشهد الأخير المتمثل في عودة الوعي، و هي الحالة التي يمكن اعتبارها حالة انقضاء الحلم الذي عاشه السلطان و الخروج منه إلى واقعه، لكنه خروج مشحون بالحدث الذي عاشه داخل الحلم، هذا الحدث سيكون له أثر في سلوكاته و التي ستظهر فيما بعد، أو اعتباره واقعا مرسوما يتحرك فيه السلطان وفق مخطط سابق لكن هذا المخطط هو نتيجة تخيل المبدع _الأول_و المسعى فيه هو فرض نوع من السلوك أراده للسلطان أن يسلكه – شاء أم لم يشأ – فبعد أن عرفه بالحياة و أذاقه ألوانا شتى من الذل و الهوان، أعاده إلى الوضع الأول الذي أخرجه منه، لكن أيضا بسلوك جديد، و إن كان الوضع الأول الذي ظهر فيه و انطلق منه لم يكن معرفا لدينا. سواء في الاعتبار الأول أو في الاعتبار الثاني. و النص لم يعط لنا مسوغا موضوعيا لهذا العقاب الذي تعرض له. لأن قضاء هذه المدة (سبع سنوات) في التشرد لم تأت خيارا له و إنما هي نتيجة فعلة قام بها.

أو أن القاص الشعبي، و انطلاقا من العقلية الشعبية بحكم تعاملها الطويل مع الحكام، أراد أن يفرض نوعا خاصا من الافتراض لغرض معين يجابه به واقعه المزري، يفضح و يعوض و يحلم بواقع تسوده المساواة و العدل و هذا ما حققه من خلال النص.

أعود إلى المنطلقات الأولى للنص التي ارتكزت عليها في اختباره كنموذج، فهو يعبر عن تجربة حياة اختصرها الإنسان في المثل الجامع لجميع أحداث النص، و كأن النص جاء ليحقق ما غرض إليه المثل الذي يقول (كِي تْجِي تْجِي بْشَعْرَه وُ كِي تْرُوحْ تْقَطَّعْ سْلاَسَلْ) و لتأسيس هذا المثل أن هارون الرشيد (السلطان) عند مغادرته لمكانه لينفذ ما رآه في الحلم أخذ معه بغلة محملة بالذهب حتى لجامها، فعرج على ينبوع ليرتوي منه و يرويها، فسقطت البغلة فيه و لم يستطع إنقاذها حتى انقطعت سلسلة اللجام.

و أثناء عودته بعد انقضاء الفترة عند الينبوع ذاته شاهد على سطح الماء شعرة فجذبها فإذا بالبغلة تتجر وراءها فعبر عن هذه المفارقة بهذا التعبير.

و سار مثلا يدل على الخير و على الشر و النجاح و الفشل.

كما أن النص انصب كله على السلطان، و السلطان رمز اجتماعي لأنه يتعلق بالحكم، فحاول القاص أن يجعل منه نموذجا اجتماعيا فجسده بهذا الشكل الفني مستعينا بعناصر أسلوبية كالصورة، و البناء الدرامي، و الشخصيات و التطور العام للنص القصصي، و جدل التجربة مع الوعي السياسي، و الرؤية العامة و مسار العملية القصصية المبدعة يعني ((تحقيق نمذجة الممارسات الاجتماعية في وقائع فردية تملك مستوياتها الرمزية العامة بحيث تؤدي إلى تجسيد الحركة و الفعل و الأحداث التاريخية بواسطة أفعال الأفراد اليومية و أفكارهم و مواقفهم و علاقاتهم))[10] حتى و إن لم يوزع النص هذه العناصر على مجموعة من الشخصيات إلا أن شخصية السلطان المزدوجة كانت كافية لأداء جميع الأدوار.

و النص أيضا انطلق من حلم، و الحلم يتحول إلى رؤية و الرؤية نوع من الاستبصار، و الاستبصار عبارة عن إلهام أو تحذير يأتي للنائم أثناء نومه. و قد يأتيه مرة أو عدة مرات و كلما تكرر كان أثره قويا على الحالم، مما يجعله يسرع في تنفيذه.

و هذا النوع من الرؤى متجذر في الفكر الشعبي و معتقداته. من هنا كان القاص لم يمهل (هارون الرشيد) من التفكير في رؤيته، بل تركه ينفذها دون مناقشة، الشيء الوحيد الذي ترك له حرية اختيار الفترة الزمنية (في شبابه أو شيخوخته). فالنص المحكى سواء أكان السلطان نفذ ما في الحلم من رؤية أو كان حلم أحد الأفراد لما يجب عليه أن يكون سلطان البلاد أن ينزل إلى الطبقات الدنيا من المجتمع، و يعايشها حتى يعرف معاناتها و متطلباتها و حاجياتها، و هذا ما تحقق في الحالتين. كذلك النص كسر معتادا و هو ما لم نألفه في النصوص الشعبية، إذ جلها تجعل البطل يخرج من الطبقات الشعبية المسحوقة و يبرز مع تلاحق الأحداث إلى أن يصل في النهاية إلى مرتبة السلطان. غير أن هذا النص بدأ بالسلطان و أرغمه على النزول من عرشه و تدحرج تدحرجا حياتيا إلى أن وصل إلى قاع الطبقة الاجتماعية، و لم يخرج منها إلا بعودته المفاجئة، – بالنسبة للشخصيات التي يعايشهم – لوضعه الأول، و بذلك، فهذا النص سار في اتجاه معاكس للنصوص المألوفة، و

هذا ما جعله مميزا عن غيره من النصوص و حاملا لمجموعة من الرموز الاجتماعية المختلفة.

الهوامش

[1] اريك فروم : اللغة المنسية – ص 31

[2] المرجع نفسه ص 31

[3] جورج طرابيشي : لعبة الحلم و الواقع – دراسة في أدب توفيق الحكيم. دار الطليعة. بيروت ط2 1979 ص 79.

[4] نور ثروب فراي : الماهية و الخرافة – دراسة في الميثولوجيا الشعرية. ترجمة هيفاء هاشم: منشورات وزارة الثقافة سوريا–دمشق 1992 ص237.

[5] أنظر: امحمد عزوي : القصة الشعبية في منطقة الأوراس. ملحق النصوص ص 7.

كذلك : عمر بن قينة : قصص شعبية من الجزائر ص 82. باية كاهية : القصة الشعبية في منطقة البرج – ملحق النصوص – مخطوط رسالة ماجستير كلية الآداب و العلوم الإنسانية جامعة الجزائر – 2001/2000 ص 50.

[6] شوقي عبد الحكيم : مدخل لدراسة الفولكلور و الأساطير العربية – الهيئة المصرية العامة للكتاب ج1 1994 ص 87.

[7] عمر بن قينة : قصص شعبي من الجزائر ص 86.

[8] شوقي عبد الحكيم : السير و الملاحم العربية – دار الحداثة بيروت. د.ت ص 80.

[9] طلال حرب : أولية النص – نظرة في النقد و القصة و الأسطورة و الأدب الشعبي. المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع بيروت ط1 1999 ص 124.

[10] محمد حافظ دياب : النقد الأدبي و علم الاجتماع. فصول. مجلة النقد الأدبي. المجلد الرابع عدد1 أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر 1983 ص 69.